تطور التعليم النسوي في بغداد 1921-1939

المدرس المساعد : بتول انور علي
batoolanwar1994@uomustansiriyah.edu.iq

ان الطريق التعليم الفتيات – المسلمات خاصة – في العراق ومنه مدينة بغداد كانت تعترضه مو انع وعقبات عديدة فكان لابد من بذل جهود كبيرة لتخطي تلك المو انع وازالة تلك العقبات الاجتماعية السائدة فأن عادات الحجاب والزواج المبكر كانت تعيق ميدان العمل في هذا المضمار فضلاً عن الرأي العام بأستثناء بعض الفئات القليلة ما كان يرى لزوماً لتعليم الفتيات حتى ان جماعات كبيرة من الناس كانت تزعم ان هذا التعليم لا يخلو من محاذير والبعض كان يغالي في هذا الزعم ويدعي ان تعليم الفتيات يؤدي الى افساد الاخلاق، من حيث اعتقاد بعض المتزمتين -وهم على خطأ ان انخراط المرأة في صفوف التعليم الرسمي لا ينسجم والسلوك القويم . وعليه فأن المرأة وجدت نفسها داخل اطار هذه الصورة المريرة مقيدة مستهدفة للحط من كرامتها والنيل من انسانيتها وامتهان حقوقها.

لذا فالتعليم اصبح يشكل جانباً مهماً في عملية نهوض المرأة لما يحدثه من تغيير جذري في وضع المرأة ومكانتها في المجتمع وبالتالي يمكن اعتبار التعليم بمثابة العلاج السحري والمثالي لكل الامراض الاجتماعية وبخصوص تعليم الاناث الذي يكاد ينعدم بأستثناء عدد من الكتاتيب البسيطة التي تديرها(الملايات) لتعليم القراءة والكتابة وقراءة القرآن الكريم وبعض المدارس القليلة للطو ائف الغير مسلمة ، وظلت المرأة على تلك الحالة حتى اواخر القرن التاسع عشر عندما كتب الحظ ان ينشئ اول مدرسة بنات حديثة في العراق الى عام 1899 في ومن الوالي العثماني (نامق باشا) الذي قرر تأسيس مكتب للاناث يضم الدراستين الابتدائية والمتوسطة دعاه (انت رشدية مكتبي) حيث شغلت احد الدور الو اقعة في محلة الميدان الجديدة لتكون مقراً لها وتعيين (امنية مشكورة خانم) معلمة اولى -مديرة- لهذه المدرسة يعاونها ثلاث معلمات اخريات منهن (مدام اليانور) معلمة الاشغال والخياطة والتطريز وعلى الرغم من وجود مدارس خاصة بتعليم البنات انشاتها الطو ائف المسيحية واليهودية فقد كان اقبال الناس على هذه المدرسة حسناً نوعاً ما فقد اصبح عدد الطالبات فيها عند افتتاحها (95) طالبة ومن المفارقة ان هذا العدد اخذ يقل تدريجياً فيما بعد ، الا ان انشاء هذه المدرسة لم يمر دون ان تصاحبه عقبات عديدة من قبل العناصر المحافظة على القديم التي كانت تتهم كل من يقوم بأرسال طفلته الى المدرسة بشتى التهم الباطلة فقد كانت خطوة (نامق باشا) خطوة جريئة تجاه قوة العناصر المحافظة انذاك ورغم ذلك كله فقد تم فتح هذه المدرسة واخذ الناس يرسلون بناتهم اليها رغم تلك المقاومة من العناصر المحافظة وبصورة كانت اسر محدودة العدد ترسل بناتها اليها للتعلم وهن بلا ريب قلة بالنسبة الى غيرهن.

ومن الطرف التي ر افقت افتتاح اول مدرسة ابتدائية للبنات في مدينة بغداد ان مجلس ولاية بغداد حدد الشروط التي يجب توفرها في تلك المرسة وهي:-

1- ان لا تكون احدى الدور المجاورة متسلطة عليه.
2- ان لا تكون شبابيكها مطلة على الشارع.
3- ان لا يكون الدور المجاورة اشجار عالية.

الا ان الشاعر جميل صدقي الزهاوي الذي كان احد اعضاء المجلس المذكور ظل صامتاً اثناء مناقشة الاعضاء -وكان معظمهم من المحافظين- فلما سكتوا قال متهكماً(ان هذه الشروط يا حضرات لا تنطبق الا على منارة سوق الغزل).

وهكذا تكشف لنا هذه الرو اية عن روح الجمود والتزمت التي كانت تحيط بمسالة تعليم المرأة بحيث ان الشاعر الزهاوي نفسه لم يسلم من انتقادات المجتمع اللاذعة ، وقد ظلت هذه المدرسة تعمل في مدينة بغداد باعتبارها المدرسة الرسمية الوحيدة حتى عام 1908 اذ تم انشاء مكتب للاناث في جانب الكرخ واخر في محلة البرودية والثالث في محلة باب الشيخ وكانت جميع هذه المدارس ابتدائية وفتتحت جمعية الاتحاد والترقي في بغداد مكتب للاناث وذلك في عام 1914 وقد كان عدد الطالبات في

جميع تلك المدارس بمافيها الرشدية عام1914 لا يزيد عن (300) طالبة وقد بقيت هذه المدارس حتى الاحتلال البريطاني لبغداد عام 1917 ، وبسبب ظروف الحرب العالمية الاولى ودخول البريطانيين كانت البلاد تخلو من مدارس البنات فقد تجاهل البريطانيون اعادة هذه المدارس لانهم ليسوا محتاجين الى استخدام الاناث في الدوائر الحكومة وثانياً لانهم لايوجد لديهم عدد كاف من المعلمات وثالثاً لان الناس متعصبون غير راغبين بأرسال بناتهم الى المدارس ، وفي عام 1918 افتتحت(زهرة خضر) معهداً -مدرسة- اهلية بثلاثة صفوف ضم (40) طالبة في وقت واحد اما الدروس التي تقوم بتدريسها فلم تتعدى القران الكريم والرياضيات وبعض الفنون المنزلية وقد تباينت الاحكام في هذا العمل التي اقدمت عليه زهرة خضر فقابله البعض بالتقدير والارتياح والبعض الخرى فدمغته بالاباطيل والضلالات وسلقت خططه باللسنة حداد لاتفهم ولا ترحم والحقيقة ان مدرسة (زهرة خضر)هي اول مدرسة اهلية تقام في بغداد وتضطلع سيدة عراقية لأنشائها وادراتها معاً ، وفي اواخر عام 1919 اعلنت نظارة المعارف بأنها استقدمت مربية بريطانية وهي (المس كلي) التي ستقوم بفتح مدرسة للبنات في بغداد وباشرات بأتخاذ الخطوات لفتح هذه المدرسة اذ قامت بتسجيل الطلبات حتى اذا تم تسجيل عدد كاف منهن اقيمت حفلة لمناسبة افتتاح المدرسة وذلك في 19\1\1920 حضرها عدد كبير من النساء العراقيات والاجنبيات والقت مديرة المدرسة كلمة عن تعليم المرأة ثم القت (المس كلي) كلمة باللغة العربية عن مكانة المرأة بعدها القت الطالبة(صبيحة الشيخ داوود) كلمة شكرت فيه المعارف على فتح المدرسة ودعت المعارف ان تكثر من فتح المدارس اخرى في بغداد والمدن العراقية الاخرى ، وهكذا اخذت هذه المدرسة تسير سيراً حسناً والطالبات يقصدونها من شتى المحلات وفي عام 1921 تم فتح مدرسة اللاناث في جانب الكرخ بعد ان تقدم الاهلون بعريضة وقعها وجهاء الكرخ يطلبون فيها فتح مدرسة لبناتهم اسوة ببنات الرصافة ولتخليصهن من مشقة العبور الى جانب الاخر وهن يذهبن الى المدرسة ، ثم اخذت حركة تأسيس المدارس البنات تسير سيراً بطيئاً بسبب ماكانت تلاقيه وزارة المعارف من مشاكل وعراقيل منها عدم وجود المعلمات المختصة بالتدريس مع عدم اقبال الطالبات على المدارس. واستطاعت المعارف التغلب نوعاً ما على مشكلة عدم ودود المعلمات وذلك بقيامها بتأسيس (صف المعلمات) بمدرسة البنات المركزية في بغداد وفي المدرسة الخزامية في الموصل وذلك في عام 1921 حيث تقضي الطالبة سنة واحدة تتخرج بعدها معلمة وبعد ان كثر عدد المتخرجات ونظمن الدراسة في دار المعلمات راحت وزارة المعارف تتوسع في فتح مدارس للبنات ، والذي لا يمكن نكر انه ان الدعوة لتعليم المرأة ونهوضها في العراق كمل هو الشأن في مصر قد استندت الى تشجيع بعض المفكرين والكتاب وكان على رأس هؤلاء المفكرين شاعراً العراق جميل صدقي الزهاوي ومعروف الرصافي . ونخرج من هذا كله الى ان الاهتمام بتعليم المرأة كان ضيقاً ومحدوداً حتى العقود الاولى من القرن العشرين فقد كانت لدعوات تحرير المرأة وتعليمها الاثر الكبير في تسامح الناس في مسألة تعليم المرأة ذلك التسامح الذي وقف في بادئ الامر عند حدود المرحلة الابتدائية ثم امتد بمرور الزمن الى المرحلة الثانوية ثم الجامعية على ان قبول المجتمع لهذا التطور الجديد لم يأت بسهولة وبقفزة واحدة و انما مر بمراحل عديدة ، ويبدو من خلال تتبع مسيرة التعليم بالنسبة للمرأة كان كل تقدم تحققه البنات في دارستهن يستلزم ايجاد مستوى دراسي اعلى فتقوم ضجة المعارضين من جديد حتى شقت الفتاة طريقها الى الجامعة يستدل من التقارير الصادرة لوزارة المعارف ان اقبال الاهلين على الدراسة اخذ بالتقدم من خلال الزيادة في عدد التلاميذ في المدارس بغداد. وكذلك الاقبال الواضح على الدخول في مدارس البنات كما يشير التقرير السنوي للمعارف لسنة 1927-1928 وفي عام 1929 تم افتتاح المدرسة المركزية للاناث في بغداد ، وبقرار من مجلس مديري المعارف شهد عام 1932-1933 افتتاح مدرسة الفنون البيتية وعهدت المعارف بادارتها لاول مرة الى (المس تايس) الاميركية الجنسية التي جلبت خصيصاً لذلك وتقوم المدرسة بتعليم البنات اصول التدبير المنزلي والخياطة والحياكة والتطريز والموسيقى وتربية الطفل وفي المدرسة اربع معلمات وتضم(58) طالبة يتوزعن الى ثلاثة فروع ولغرض تنمية المواهب وتطوير القابليات عمل سجن النساء في بغداد على تأهيل السجينات من خلال القيام بتعليمهن القراءة والكتابة واعمال التطريز والخياطة والتدبير المنزلي.

ومع ان تاريخ التعليم في العراق لم يخص بتدقيق عدد اللواتي تركن بلادهن الى المعاهد الاجنبية من خلال البعثات العلمية فمن الثابت ان (مديحة صالح زكي) كانت اول فتاة عراقية سافرت على حسابها الى فرنسا عام 1926 وغادرت بعد عشرة

اعوام من ذلك التاريخ ثانية للحصول على الدراسة العالية وكانت (مديحة ياسين عمر) الرسامة المعروفة (مارتا يوسف) اول عر اقيتين سافرتا عام 1926-1927 الى خارج في بعثة حكومية وبعد ذلك التاريخ اخذت البعثات العلمية العر اقية تضم كل سنة من الفتيات لايقل عن ربع الموفدين.

اما في مجال التعليم العالي فقد كان مجرد تفكير الفتاة فيه يعد مغامرة خطيرة مليئة بالصعاب والعقبات وكان على الراغبات في اكمال دراستهن والسفر الى الخارج والجدير بالذكر انه لم يكن هناك قانون يمنع دخول الفتيات الى الكليات في بغداد غير ان المسؤولين عن هذا التعليم كانوا مناثرين بالراي العام الذي كان مايزال يعارض فتح ابو ابه امام الفتاة وقد قبلت في الكلية الطبية اول فتاة عر اقية في العام الدراسي 1933-1934 وهي (ملك غنام).

كان عام 1936 يمثل منعطفاً خطيراً في تعليم المرأة العر اقية اذ فتحت كلية الطب وكلية الحقوق ابوابها لقبول الفتيات حيث قبلت الاولى ثماني طالبات وقبلت الثانية طالبة واحدة هي- صبيحة الشيخ داوود -ومن ذلك الوقت فتحت ابواب الكلية للفتاة العر اقية ومنحتها جميع التسهيلات واخذت الكلية تتبارى في هذا المضمار ومنذ ذلك التاريخ اخذ عدد الطالبات من الجنس الناعم يتز ايد سنة بعد اخرى في مجال التعليم العالي وشهدت فترة الثلاثينات كذلك تطور محدد في عدد المدارس الابتدائية والثانوية مع ازدياد عدد المعلمين المصريين المعارة خدماتهم للعمل في العراق كما شرع بنشر الكتب المدرسية من قبل وزارة التربية.

اما المدارس التي كانت تديرها طو ائف وبعثات التبشير المسيحية وكذلك مدارس الطائفة اليهودية فأنها قد ازدهرت بدورها هي الاخرى مع التفكير على انشاء مدرسة على النمط الانكليزي ومن الجدير بالذكر ان تطوراً كبيراً حدث في اواخر الثلاثينيات حيث توجهت الفتيات اليهوديات لمواصلة دراستهن الجامعية ايضاً اذ تخرجت الدفعة الاولى من تلك الفتيات اليهوديات من كلية الحقوق عام 1941.

واذا امعنا النظر في هذه الارقام فأننا نصل الى نتيجة تدعو الى الدهشة والاعجاب فهي تشير اولاً الى حدوث انقلاب اجتماعي وثقافي عظيم في تعليم المرأة وتثقيفها ويعني من الناحية الثانية ان المرأة استطاعت ان تقف بوجه التيار ات المحافظة التي وقفت بوجه تعليمها هذا التعليم الذي قادها ان تقف على قدم المساواة مع الرجل وتتبوأ مكانها الطبيغي في المجتمع امام الطفرة الواضحة في عدد المدارس والطالبات فهو في عام 1939 فلا يمكن ان نعزوها الا بتقدم المجتمع نفسه وتغير نظرته الى التعليم فالاباء مثلاً اخذوا يميلون الى تعليم بناتهم ذلك لان التعليم اصبح وسيلة ضمان فرص اوسع لعمل الفتاة واعطاء العائلة منزلة خاصة فعمدت الاسر الميسورة على تعليم بناتهم اولاً ثم تبعتها الاسر الاخرى.

من هذا كله نستطيع القول ان تطور التعليم النسوي في مدينة بغداد يعتبر القاعدة الاساسية التي استندت عليها نهضة المرأة الجديدة فالتعليم يشكل جانباً مهماً في عملية نهوض المرأة وبالتالي تقدمها في كافة مجالات العلم ومضامير الحياة الاجتماعية.